

تجديد الفكر القومي

رؤية التجمع القومي الموحد ..

من دراسة : _____

أ/ طلعت رميح

يبدو أمراً بالغ الصعوبة أن يجري القيام بعمل نقدي لرؤية فكرية ، في وزن ونمط ما هو وارد في دراسة (كتاب) الدكتور رفعت الأسد ، تحت عنوان (التجمع القومي الموحد : نحو تجديد الفكر القومي) .

وسبب الصعوبة في تقديم رؤية نقدية -من الزاوية العامة- هو أننا أمام نمط من الأعمال الفكرية التي تقدم مفاهيم كلية لفلسفة دورة الحضارة ، وفق سعة معرفية تاريخية شاملة ، كما هو الكتاب ، الذي هو حالة أقرب إلى نمط من تأسيس نمط مفاهيمي وفلسفي عام -لا نظرية معينة محددة في قوانين- للتعامل مع روافد متعددة لأفكار المعرفة الإنسانية وللتجارب الحضارية ولسياقات ظهور الأفكار والنظريات والفلسفات في تاريخ الحضارة البشرية . إن تقديم رؤية نقدية لمثل هذا النمط من الأعمال الفكرية هو أقرب إلى تقديم نظرة معرفية فلسفية مقابلة لقراءة شاملة في تطور الحضارة الإنسانية -مع نقد الأخرى- أو بالدقة هو دخول إلى حالة تقييمية لكل النظريات والفلسفات والأفكار ومختلف مجالات الإنتاج الحضاري الإنساني ، في سياقاته العامة ، وفي خصوصيات تأثيره في كل مرحلة بعوامل الزمن ضمن حالات التطور والتغيير التي قادت نشوء وانحيار الحضارات .

أما سبب الصعوبة في تقديم رؤية نقدية لهذا العمل -من الزاوية الخاصة - فمرجعه إلى أن الدراسة (الكتاب) قدمت فلسفة معرفية ذات أبعاد إنسانية عامة محددة الملامح في ذات الوقت للسلوك العقلي السليم (علميا وفلسفيا) خلال السعي لتأصيل الملامح الخاصة والمميزة للحضارة العربية وأصول الفكر العربي في القلب منها، بما يجعل المحاولة لتقديم رؤية نقدية خاصة ، هي محاولة لتخصيص العام ومحاورته وفق وقائع تفصيلية بما يعني ولوج دورة عكسية للقواعد الصحيحة للتحليل والاستنباط والاستنتاج ، لن تخرج مهمتها عن إثبات الوجود وانتهاك أبسط القواعد العلمية .

وهنا لا بد من المعالجة بالإيضاح ، أننا أمام عمل فكري متميز ، جاب ظواهر الحضارة الإنسانية عبر تاريخها ، وفق أسس صحيحة للتعامل مع المعرفة الإنسانية وتطورها . وإنما أمام محاولة جادة ودقيقة لوضع معالم نظرة فلسفية لإخضاع هذا التطور الإنساني متعدد الثقافات والمتصارع عبر قرون ، لقواعد إنسانية عامة ولفهم إنساني "سوي" يسهم في تقديم رؤية تستعمل على الدفع بتطور الحضارة الإنسانية وفق نمط من فهم التعدد والتفاعل على أساس تكامل الروافد ، لا تصارعها وتقاتلها .

كما هنا وفي تلك المقدمة نجد أن من الأهمية والأولوية الإشارة إلى الحاجة الشديدة إلى هذا النمط الفكري -والتنظيري بشكل خاص - في الدراسات والكتابات العربية في المرحلة المعاشة تحديدا . وهذا هو الدافع للإقدام على هذا النمط من المحاوراة الإضافية -لا الرؤية النقدية - إذ الحاجة إلى هذا النمط المتميز من التنظير (الوارد في الكتاب) هي حاجة ماسّة لغياب مثلها لمرحلة طويلة ، طغت خلالها الكتابات الخاوية والعقيمة والسطحية والتبريرية والموغلة في الشكلية الأكاديمية ، على ما عداها ، حتى صارت الكتابة نمطاً من دفاتر

حسابات البنوك . هذا ما يوجب المزيد من الحوار الذي نحدده "بالإضافي" تأكيداً على الاتفاق حول الأفكار الواردة في الأصل.

والقصد هنا أن الدراسة (الكتاب) تأتي في السياق العام لتقدم نمطاً من أنماط دراسات بناء الذات الحضارية بالمعنى الشامل ونمطاً من السعي لبلورة نظرية معرفية لفهم الذات والآخر، وكحالة تصحيح فكرية لمثالب وأخطاء مرحلة الاندفاع السابق للفعل السياسي والاقتصادي الصراعي مع النفس والآخر، دون رؤية متعمقة لفهم النفس أو الآخر. كما تأتي الدراسة بديلاً وتصحيحاً لتلك الحالة التي سادت، وفي الوقت الراهن هي تأتي في مواجهة هؤلاء الذين اندفعوا تحت ضغط الخارجي وتأثراً بحالة الخواء الفكري، إلى نمط من الدفاع "الجاهل" عن الحضارة والفلسفة الواسعة والعميقة والمحفورة في الحضارة العربية الإسلامية - في سياق التاريخ - بأحاديث تبريرية أو بأنماط من التبرير الدفاعي .

قدمت الدراسة عدة أمور مهمة ينبغي الإشارة إليها :

أولاً : قدمت السياق التاريخي لنتاج الحضارة العربية ببعدها الإسلامي ضمن سياق المساهمة الفاعلة في الحضارة الإنسانية، لا باعتبارها حالة مضادة وصراعية للحضارات الأخرى - إلا في مجال تحرير الإنسان والدفع بحضارته تفاعلياً - وإنما باعتبارها حالة تطويرية للحضارة الإنسانية بنت على ما هو إيجابي في ما قبلها - دون إنكار أو تبديد له . كما حددت سياقات انتكاسها فيما بعد لعوامل وظروف عامة وخاصة بها، والأهمية هنا هي أن هذا الفهم هو وحده القادر على أن يقدم أساساً لعودتها للنهضة والتطوير وفق نمط تفاعلي حضاري وإنساني طبيعي مع الآخرين. والجوهري هنا، أن الدراسة لم تقدم "الرؤية" في إطار "مقولات" سابقة التجهيز، كما الفعل الأغلب في الكتابات التي غلبت

عليها الرواية لا الفكر والتنظير والتحليل ، وإنما في سياق من تتبع ورصد التطور الفكري والحضاري وفق محطاته الرئيسية. وفي ذلك بالدرجة الأولى نحن أمام بلورة فكرية وعلمية جادة لأساس نهضة جديدة أو متجددة ولسنا أمام دراسة من ذاك النمط الشائع والمنتشر من كتابات ترويجية ساذجة لمقولات ترفض الهزيمة الثقافية والحضارية وفق منطق التفاخر هو الأقرب إلى ما جاء في شعر ما قبل الإسلام . نحن إزاء تأصيل لأسباب ما كنا عليه وللتغير الحادث فينا وفي غيرنا بما أوصلنا وهم إلى ما أصبحنا عليه من تدهور وما أصبحوا هم عليه من تطور -مع نقد الزائف وغير الإنساني فيه- كما أننا أمام تأكيد علي نمط الانتقال الجاري للنهضة بين بقاع المعمورة وفق رصد لعوامل الفكر ومنتوجها الدافع لقيام الحضارات وتطورها ، وقد جاءت الدراسة في جانب منها حالة توضيح لتأكيد عودة حضارتنا للبروغ ، إذ الدراسة في ذاتها "مقدمة في أسس النهضة".

ثانياً : إنها قدمت نمطاً نقدياً للمنتوج الفكري للحضارة الأوروبية عبر تاريخها وحتى مراحل هجومها وعدوانيتها ما بعد النهضة وبصفة خاصة بعد التشكل القومي، دون التخلي عن النظر في إيجابياتها- كما هو سائد في الثقافة التعبوية- باعتبارها نتاجاً للسياق التاريخي للحضارة الإنسانية بصورة عامة وباعتبار أن المنتوج الحضاري ليس حكراً على أمة أو قومية ، وأن الوظيفة التاريخية للحضارة هي في التنقل والانتقال . والحق هنا أن الإنسانية جمعاء هي صاحبة "قسط كبير" فيما تحقق لأوروبا والغرب عموماً ، إذ لولا الثروات التي نمت من المستعمرات ما وصلت أوروبا لما وصلت إليه سابقاً والآن، إضافة إلى ما هو مؤكد من أن الارتقاء الحضاري الغربي إنما جاء امتداداً وبناء على ما

تحقق للحضارات الأخرى من علوم وفكر وثقافة وفلسفة... إلخ ، اعترف منظورها بهذا أم أنكروا.

ثالثاً : إن الدراسة قدمت رؤية فلسفية ناضجة لاستخلاص الجوهرى لما أنتجه السياق التاريخى لتطور الحضارة العربية ، إذ حددت خصوصيات اللغة والثقافة وشددت على أصالة وجوهرية الوعاء اللغوي للفكر والحضارة . وفي ذلك أهمية جذرية ، حيث حالة التبلور القومي والاقترابات الحضارية والاستراتيجية في العالم حالياً ، تشير إلى أهمية هذا العنصر وجوهريته ، حيث لا يمكن إغفال أهمية البعد اللغوي في العلاقات الاستراتيجية الأمريكية- البريطانية - الاسترالية ، ولا دور الفرنسية في منظومة الفرانكفونية... إلخ . كما الأهمية هنا - أيضاً - في خطورة الإضعاف الجارى للغتنا العربية - وعاء الحضارة وروح القومية- عبر دخول مشتقات لغوية أجنبية بحكم التطور التقني الغربي وإلى خطورة وثقافة اللغة المتسللة ضمن تلك المشتقات خاصة وأن ذلك يجري في ظل شعور بالهزيمة الحضارية ، بما يعمق آثار "ضعف النظر" إلى جوهرية الحفاظ على عنصر اللغة كأساس في بناء النهضة على أسس قومية.

رابعاً : إنها قدمت منظوراً فكرياً وفلسفياً لمضمون القومية ، مرجعه البعد التعصبي الأوروبي في مضمون القومية إلى أسبابه ، ومرجعه هذا النمط "المتحضر والإنساني" للفكرة القومية في المنطقة العربية إلى البعد الإسلامى ، الذي نجح في منع الحالة القومية العربية من التحول إلى حالة تعصبية عرقية ، وأعطائها أصالة نمطها الحضارى كحالة ثقافية قائمة على التفاعل الإنسانى لا العداء مع القوميات الأخرى .

خامساً : إن الدراسة تأتي لتقدم نمطاً فلسفياً ومعرفياً واضحاً وعميقاً يشكل منهجاً عقلياً ويشكل رؤية صلبة التماسك وفعالة ، في مرحلة حدد فيها الهجوم الغربي أولوياته الفكرية في "تغيير كل ثابت في العقل العربي " سواء علي صعيد المفاهيم الدينية أو القومية أو الوطنية ، أو علي صعيد البني المؤسسية المجتمعية (وعلي رأسها مؤسسة الأسرة) أو علي الصعيد التنظيمي لمؤسسات الدول خاصة العسكري والاقتصادي منها . وهنا وفي ظل "غياب" التجديد للمكون الصلب للفكر القومي ، تأتي الدراسة لتجدد هذا الفكر وفق أسس شاملة عامة وأصيلة ومستقبلية أيضاً.

سادساً : إنها تأتي بهذا الشمول والوضوح والتشكيل المعرفي الأساس للفكر القومي العربي ، في ظرف انقلب فيه كثير من المثقفين العرب على القومية بل وعلى الثوابت القيمة ذاتها ، فيما سُمِّي بظاهرة الليبراليين العرب الجدد ، الذين طرحوا الليبرالية بنفس المنهج الليبرالي العلماني الغربي (فصل الدين عن الدولة-الحرية الفردية أساس البناء القيمي ... إلخ) بما يجعل أهمية الدراسة-الكتاب ذات طبيعة حاسمة ، خاصة حينما تكون هادية لنخبة فكرية محددة .